الفصل السابع
شخصيات منيرة

العالم المستنير د.أحمد مستجير

د. أحمد مستجير العالم، الأديب، الإنسان، ماذا أقول عنه؟! ماذا أقول عن هذه الكتلة المنيرة ـ التى كانت وما تزال ـ تشع معرفة علمية وأدبية على المحيط الذي تحيا فيه لكي تطوره إلى الأفضل والأجمل، شخصية منيرة تشع إنسانية دافئة تحنو على الصغير والكبير، تتدفق تواضعا وخلقا رفيعا، كتلة منيرة تفيض بالحب والعطاء من أجل الوطن العزيز مصر.

ولكنى لم أجد أجمل ولا أدق من وصف لهذا الرجل، إلا كلمة قالها العالم الجليل د.محمود حافظ شيخ علماء مصر ورئيس مجمع الخالدين ـ مجمع اللغة العربية ـ فى استقباله كعضو جديد بالمجمع عام 1996 " عندما حان موعد الترشيح لعضوية المجمع لمع فى ذهنى اسم عالم من صفوة علمائنا برز فى مجال العلوم الزراعية وسطع نجمه فى السنوات الأخيرة من كثرة ما كتب وترجم فى علوم الوراثة وفروعها المستحدثة، وكذلك فى الأدب والشعر، هو العالم الموسوعى الأستاذ الدكتور أحمد مستجير...وإنى على يقين أيها الزميل العزيز أنك سعيد حقا بهذه الثقة الغالية التى منحك إياها زملاء لك هم صفوة من جهابذة الفكر والعلم واللغة يقدرون علمك وخبرتك ومكانتك، .. ولست فى حاجة إلى ترداد القول إن المكانة التى تتبؤها اليوم وأنت بها جدير لمكانة رفيعة حقا طالما

اشرأبت إليها أعناق وتطاولت رؤوس...فأهنئك تهنئة خالصة عضوا بين سدنة اللغة وحماتها فى مجمع الخالدين"[1]

حياة د.أحمد مستجير رحلة معرفية، رحلة عطاء مصرية أصيلة، ولد أحمد مستجير فى عام 1934 بقرية الصلاحات - محافظة الدقهلية - وفي المرحلة الثانوية اهتم بكتب البيولوجي؛ لأنه أحب مُدرسها "خليل أفندي" الذي تخرج في كلية الزراعة ـ إن المعلم قيمة كبرى فى إعداد جيل المستقبل ـ فأحب أن يلتحق بنفس الكلية، وفى دراسته الجامعية افتتن بأستاذه في الكلية عبد الحليم الطوبجي أستاذ علم الوراثة، فسلك ذات التخصص، وبلغت ثقة "الطوبجي" في ذلك "الطالب" أنه لما احتاج أن يكتب مذكرة للطلاب ولم يكن وقته يسمح بذلك أعطى الطلاب ما كتبه طالبه النجيب في المحاضرات! وبعد تخرجه فى كلية الزاعة عام 1954 عمل خبيرا زراعيا بوزارة العدل ثم التحق بالمركز القومي للبحوث ليحصل على الماجستير في تربية الدواجن من كلية الزراعة جامعة القاهرة وعمل معيدا بنفس الكلية، وفي هذه الفترة عرف من خلال قراءاته "آلان روبرتسون" أستاذ علم الوراثة البريطاني، فراسله وطلب منه مساعدته للالتحاق بمعهد الوراثة جامعة أدنبرة باسكتلندا، وقد كان، وحصل على دبلوم وراثة الحيوان عام 1961 بامتياز، وكانت المرة الأولى في تاريخ المعهد أن يحصل طالب على هذا التقدير.. ثم بدأ العمل للدكتوراه مع أستاذه "ألان روبرتسون"، وعنه يقول: "كان ألان فى الحق هو الأذكى. كان أذكى من قابلت في حياتين ...كان متواضعا للغاية،

[1] د. محمود حافظ: مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الثامن والسبعون، مايو 1996، ص 168.

إنسانا"[1] إنه مثال لرجل العلم الحق، وبعد حصوله على الدكتوراه عام 1963 وعودته إلى وطنه لم تنقطع صلته بأستاذه، حيث كان يتلقى منه في كل عيد بطاقة تهنئة بخطه الجميل، إلى أن توفي. كان بيت د. أحمد مستجير في أدنبره يطلق عليه " بيت العمدة " العمدة الذي يعرف البلدة، والعمدة الكريم المضياف، كل من ذهب إلى أدنبره في وجود د. مستجير كان يجد كل العون والمساعدة والحب والتقدير حتى يستكشف المكان ويرتب حاجياته على خير وجه، ورغم أن القليل من هؤلاء الزوار قد إستخدموا هذه العمدية إستخداما خاطئا فى بعض المواقف، رغم هذا لم يمتنع مستجير عن تقديم خدماته إلى الآخرين عن حب وعن طيب خاطر وعشقا للوطن. إنه الإنسان أحمد مستجير.

إسهامات علمية كثيرة للعالم أحمد مستجير صاحب مدرسة فى علم الوراثة، عشرات الأبحاث فى هذا العلم، إشراف على رسائل الماجستير والدكتوراة، مؤتمرات كثيرة، ولكن ما كان حريصا عليه ومنتهى أمله أن يقوم العلم بدوره الحقيقي في إنقاذ أرواح ملايين البشر، وتوفير الغذاء لمن يموتون جوعا، فجاهد في تطوير مفهوم الزراعة واستنباط أنواع جديدة من المحاصيل والإنتاج الحيواني فأسس مركز علوم الوراثة وأصبح رائد علم الهندسة الوراثية في مصر والعالم العربي. إن د.مستجير يرى أن البيوتكنولوجيا تستطيع إسعاد الفقراء، فهي تتضمن زراعة الأنسجة ودمج الخلايا والهندسة الوراثية وباستخدامها يمكن إنتاج نبات مقاوم للأمراض أو مقاوم للملوحة أو متميز بمحصول وفير، " البيوتكنولوجيا الحديثة هى استخدام الحيوانات والنباتات والفطريات

[1] د. أحمد مستجير: قرأءة فى كتابنا الوراثى، سلسلة اقرأ، دار المعارف، 1999، ص 17.

والبكتيري والفيروسات -كاملة أو أجزاء منها- لإنتاج مواد نافعة يحتاجها الإنسان، كالطعام والدواء والكساء والكيماويات أو فى تحسن كائنات حية موجودة "[1] ونظرا لأن البشر يعتمدون في غذائهم على القمح والأرز، من هنا بدأ د.مستجير في استنباط سلالات من القمح والأرز تتحمل الملوحة والجفاف لأنه يتبنى التكنولوجيات التي تصلح لحل مشاكلنا الخاصة ببلادنا، فلو عرفنا الاستغلال الأمثل لمياه البحر في الري، لتمكنا من إنتاج أصناف من المحاصيل الزراعية التي تتحمل الملوحة والجفاف، وتبرز أهمية هذه التجربة بعد قيام بعض الشركات بإنتاج بذور عقيمة صالحة للإنتاج، ولكن لا تصلح للاستنبات مرة أخرى، وهو ما يحرم الفلاح من حقه الأزلي في الاحتفاظ بكمية من البذور لزرعها في الموسم القادم، ويجعل هذه الشركات تتحكم في المستقبل الغذائي للبشرية، وقد أطلق عليها هذه البذور "بذور الشيطان" محذرا من خطرها على زراعتنا واقتصادنا ...كان يحلم د.مستجير بإنشاء مركزا للهندسة الوراثية، هذا العلم المستقبلى، وكان بحاجة إلى 8 مليون جنيه، لم يتمكن من تدبير المبلغ، هل يمكن لتلميذ من تلامذته أن يحول المشروع إلى حقيقة واقعة، العالم يتقدم من حولنا، ويجب أن نضع أولوية للعلم، وإذا كانت الدولة لديها أعباء، فأين دور المجتمع المدنى فى تطوير المجتمع أين الشركات التى تكسب الملايين والملايين، أليس هناك رؤية ونية للصرف على المشروعات العلمية مثل مؤسسات المجتمع الغربى التى تساهم فى تطوير الجامعات وبناء المراكز البحثية وتقديم المنح الدراسية للطلبة النابهين. كان يؤمن د. مستجير بقيمة علماء مصر ولكنه كان يقول نريد خطة عامة

[1] د. أحمد مستجير: قراءة في كتابنا الوراثى، سلسلة اقرأ، دار المعارف، 1999، ص 108.

للعلم محددة بأهداف واضحة، وعلينا أن نسير فى طريق الإنجاز، ونحن قادرون.

إسهامات أدبية فى حياة ذلك العالم لقد كتب أول مرة في حياته قصيدة من الشعر الحر بعنوان "غدا نلتقي"، وله أيضاً ديوانان الأول " عزف نای قديم" و "هل ترجع أسراب البط" ومن دراساته التطبيقية النقدية في بحور الشعر أوجد علاقة بين الأرقام وبحور الشعر العربي وهى إضافة جديدة حيث إستخدم علوم الكومبيوتر فى الكشف عما إذا كان البيت الشعرى مكسورا أم لا، وبالفعل كتب دراسة حاول إخضاع البحور للأرقام وكللت الدراسة بالنجاح وكانت النتيجة كتاب عنوانه "مدخل رياضى إلى عروض الشعر العربي" عام 1988، كم أن د.مستجير له أكثر من 25 كتابا مترجما فى العلوم والفلسفة، منها "صراع العلم والمجتمع" "صناعة الحياة" "التطور الحضارى للإنسان" "الهندسة الوراثية للجميع" " "في بحور العلم" "علم اسمه السعادة" ويقول د.مستجير خلاصة تجربته فى علم السعادة وهى الحب ، حب الناس، حب العطاء، لأن الحب هو القادر على البناء فى أكاديمية البنائين المصرية.

لقد شغل د.مستجير عضوية عدد من الهيئات المصرية منها الجمعية المصرية لعلوم الانتاج الحيواني واتحاد الكتاب والجمعية المصرية للنقد الادبي ومجمع اللغة العربية المعروف بمجمع الخالدين كما كان مقرراً لقطاع الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية بالمجلس الاعلى للجامعات، وحصل عن جهوده في علوم الوراثة على معظم الجوائز المصرية وهي جائزة الدولة التشجيعية للعلوم الزراعية عام 1974، ووسام العلوم

والفنون من الطبقة الاولى في العام نفسه وجائزة الابداع العلمي عام 1995، وجائزة الدولة التقديرية للعلوم الزراعية عام 1996 ونال عام 2001 جائزة مبارك للعلوم التكنولوجية المتقدمة وهي أرفع الجوائز في البلاد. د. أحمد مستجير لم يرحل عنا فهو معنا بروحه النسيمية، وأفكاره المنيرة، وعلمه الذي ينتفع به، أسكنك الله فسيح جناته أيها العالم الجليل.

د.مستجير السعادة والعمل وقيم التقدم

سعادة العالم الجليل د. أحمد مستجير (1934-2006) الباحث عن الأفضل، والباحث عن الأنفع، والباحث عن الأجمل، كان لا يكف عن محاولة الإرتقاء بالجوانب العلمية داخل حجرات العلم، وأيضا لا يكف عن التنقيب فى المكتبات العالمية عن كتاب يفيد به القارئ لكي يطور من قدراته، ومن هذه الكتب كتاب رشيد وهو بعنوان "علم اسمه السعادة " ويتعرض فى هذا الكتاب مجموعة من الآراء حول مفهوم السعادة.

التعريفات للسعادة كثيرة ومتنوعة بتنوع الناس طبقا لمعتقداتهم وطبقا لأزمانهم وأماكنهم ولكن يمكن القول بأن السعادة هى احساس بالغبطة الحقيقية الطويلة الأمد وهي درجة من رضا الفرد عن نفسه وعن حياته. السعادة ليست بضع لحظات هانئة نقضها قبل ان نعود للحياه القاسية فالسعادة لا تروح وتجئ فالسعادة باقية بغض النظر عن الانفعالات اللحظية. كلنا ينشد السعادة فهى هدف نسعى اليها جميعا، كل انسان أيا كانت ثقافته أو عمره يريد أن يصبح سعيدا.

تتباين أهدافنا لبلوغ السعادة، التعليم الأفضل، الصحة الجيدة، الوظيفة فى الحياه، الحبيب فى الحياه، لكن المال هو أكثر الأهداف التى نطلبها فى بحثنا عن السعادة فمعظمنا يعتقد فى داخله أن المال اذا كان منه ما يكفى

سيحل كل المشاكل، لكن البحوث المتأنية فى طبيعة السعادة أثبتت أن السعادة لا ترتبط كثيرا بالمال ـ لأن المال وسيلة وليس غاية فى حد ذاته ـ أو غيره من العوامل الخارجية، وإنما تعتمد على صفة داخلية تسمح للناس باكتشاف السعادة و التمتع بها بغض النظر عن الظروف الخارجية – طالما كانت هذه الظروف مقبولة – كانت أفضل دراسة عن تلك القضية التى تمت فى أواخر ثمانينات القرن العشرين عندما أجرى باحث على سبعين ألف شخص فى ست عشر دولة صناعية باستخدام استمارات استبيان اتضح أن مستوى السعادة لا يتأثر بدخل الفرد، فمثلا يبلغ دخل الألمانى نحو ضعف دخل الأيرلندي لكن الأيرلنديين كانوا أسعد، و كان البلجيكيون أسعد من جيرانهم الفرنسيين الأغنياء، أما اليابانيون وهم من بين أثرى شعوب العالم فكانوا من بين الدول الأقل سعادة، ويذكر بحث أجرى فى الينوى عام 1993 أن الأفراد الأثرياء يكونون فى المتوسط أسعد إنما بفارق ضئيل جدا فقد أثبتت بحوث أخرى أجريت بعد ذلك صحة هذه النتيجة : اذا ما توفرت للفرد متطلباته الأساسية (الملبس و المأكل و المسكن و الصحة) فان أى إضافة للدخل لا تضيف الى السعادة الا القليل جدا، نستطيع القول أن السعادة تنبع من تفاعل مستمر بين بيئة الفرد (عمله، صحته، نشأته، علاقاته) و بين مزاجه الشخصى، (ميله الفطرى الى التفاؤل أو التشاؤم، بشاشته أو صرامته، انطوائية أو انبساطية)، كما ان العوامل الداخلية للفرد تشكل واقع حياته.[1]

النقطة المرصودة لسعادة أى فرد هى متوسط كل المزاجات التى يخبرها الفرد فى فترة معينة من الزمن، والمزاج يخضع للوراثة كما أنه ثابت

[1] د. أحمد مستجير: علم اسمه السعادة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، 2002، ص 12-16.

على المدى الطويل وأنه يؤثر في السعادة، فقد تدفع تصاريف الحياة الناس مؤقتا إلى البهجة أو إلى الاكتئاب لكنهم يعودون بسرعة الى مزاجهم الطبيعى.

هناك من يرى أن العوامل الثقافية والتاريخية تلعب هى الأخرى دورا محسوسا بجانب العوامل الوراثية. فإنتشار الثقافة بحيث تصبح ممتزجة مع ثقافة الناس يعطى إحساساً بالرقى والمتعة والسعادة لأن الإنسان يترقى فكره وتترقى مشاعره بمفردات الثقافة من كلمة ونغمة وحركة ولون يجعل من الحياة عمل فنيا ممتعا. تقول بعض الدراسات إن أفضل مقياس للسعادة هو إجابة السؤال: ما مدى رضائك عن الحياة فى مجملها؟ أتقول إنك راض جدا أم راض الى حد معقول أم لست راضيا الرضاء الكامل أم غير راض على الإطلاق؟ إن بحث أجرى عام 1998 يذكر أن 65% من الدانمركيين وصفوا أنفسهم بأنهم راضون جدا بينما بلغت نسبة من وصفوا أنفسهم بأنهم غير راضين 5% فى البرتغال، وفى السويد نسبة الراضين عن أنفسهم 55%، ولكن يبدو أن مثل هذه الأرقام تعكس التجارب التاريخية للمجتمعات أى أنها خصائص ثابتة نسبياً للمجتمعات، وأيضا يلعب مستوى التنمية الاقتصادية فى الدولة أثراً هاماً على سعادة الناس، وعلى الوجه الآخر ليست التنمية الإقتصادية بالعامل الوحيد لسعادة الشعوب فهناك شواهد تعضد نظرية تقول إن مستوى سعادة المجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإزدهار الديمقراطية، وإرتفاع مستوى الحقوق السياسية والحريات المدنية، لكن الأمر ليس بهذه البساطة فلم ترتفع سعادة الشعب الروسى مع الإنتخابات عام 1991 بل إنها انخفضت، ومن ناحية أخرى نجد أن الصين تحركت نحو إقتصاديات

السوق دون ان تغير نظامها السياسى ورغم ذلك فإن مستويات السعادة فيها أفضل من بعض الديمقراطيات.

وإن تعددت أسباب الوصول للسعادة، إلا أنه يمكن القول بوجود عنصر هام وجوهري للوصول إليها، بمثابة الركن الأساسى فى منظومة الحياة، إنه العمل، نعم العمل، العمل يجعل للإنسان قيمة ويشعر الإنسان من خلاله أنه ينتج، ويبنى ويشيد وبالتالي يرتقي بنفسه ويرتقى بأسرته ويرتقى بمجتمعه، ويمكن أن يكون لهذا العمل إتساع فى الدائرة من المحيط الخاص والعام إلى الإرتقاء بالمحيط الإنسانى أى الإنسانية جمعاء.

العمل ليس وقاية من الملل، العمل يصنع إستثمارا مفيدا للوقت مما يساعد على زيادة الدخل، العمل يصنع فرصا للنجاح، ويخلق مجالات للطموح نحو الأفضل، ودائما يرغب الناس فى أن يزيدوا دخلهم مثل رغبتهم فى النجاح، لأن الدخل الأعلى سوف يوفر لهم قسطا من الراحة.

يقول "برتراند راسل" (1872-1970): "معظم نوعيات العمل توفر ميزة قتل الوقت وتوفر منفذا ـ مهما كان متواضعا ـ للطموح وتكون كافيه لجعل حتى الشخص الذي يعتبر عمله كئيبا أسعد فى المتوسط من الشخص الذي بلا عمل على الإطلاق، ولكن عندما يكون العمل مشوقا يكون بمقدوره أن يمنح الإشباع بدرجة أعلى جداً من مجرد تفريج الملل

... هناك عنصران رئيسيان يجعلان العمل مشوقا: الأول ممارسة المهارة والثانى التشييد "[1]

نعم إن المهارة فى العمل بعدا ضروريا لكى نتقن ما نصنع ولكى نستمتع فى نفس الوقت بالعمل الذى نقوم به، فالمهارة التى يكتسبها الشخص الذى يقوم بالعمل تجعل عمله ذو حرفية بارعة وتجعله مميزا وتجعله متفوقا على أقرانه وكذلك الصناعات والأعمال الأخرى، فمهارة العامل فى صناعة الأخشاب، ومهارة الأديب فى إستخدام اللغة، ومهارة الطبيب فى إجراء العمليات الجراحية، كلها أشياء ترتقى بقيمة العمل الذى نقوم به على إختلاف أنواعه، وهو أيضا يعطى الإحساس بالمتعة والسعادة، كما لا يمكن أن نتناسى أن المهارة يجب أن تتطور طبقا لمتغيرات العمل وظروفه الجديدة لأن هذه الظروف الجديدة تحتاج إلى مهارات مغايرة وذلك حتى يستطيع الإنسان الإستمرار فى التحسن إلى الأفضل، فاليوم لا يكفى للشباب أن يحصل على الدرجة العلمية فى تخصص ما وإنما على الشباب أن يتقن مهارات هذا التخصص بالإضافة إلى مهارات آخرى ليست مكملة وإنما هى أساسية فى تعلم لغة الكومبيوتر الذى يفتح آفاقا جديدة فى التعرف على تخصصه الدقيق وأيضا لكى يتمكن من متابعة أحدث النظريات أو الأبحاث أو المشروعات فى تخصصه، وأيضا معرفة اللغات التى نطل من خلالها على الشعوب والثقافات الآخرى.

والعنصر الثاني الذي يجعل العمل ممتعا ويمنح الإنسان السعادة هو التشييد، والتشييد هو البناء والعمران، والتشييد يقصد به البناء المادى

[1] برتراند راسل: انتصار السعادة، ترجمة محمد قدرى عمارة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة 409، 2002، ص 230.

وأيضا البناء المعنوى فمشروع بناء مستشفى أو متحف أو مدرسة أو مكتبة أو نشر ثقافة العمل التطوعى، تطوير مهارات اللغات، تنمية القدرات البشرية فى المشاركة وغيرها مشروعات تشييد لتقدم المجتمع، لتقدم الأمة، فالبناء مصدر عظيم للسعادة، إنه تحويل الأرض الجرداء إلى حقول مزهرة ومثمرة وما أصدق قول الشاعر في هذا المقام:

وإذا تمنيت الحياة كبيرة بلغتها بكبيرة الأعمال

لقد إستطاعت اليابان والهند والصين وماليزيا وسنغافورة وغيرها من الدول أن تصل إلى إسعاد شعوبها بفهم وإدراك قيمة احترام العمل المتقن، العمل الجاد، العمل فى قمة فلسفته كبناء للحياة فى أجمل صورة متقدمة وحضارية.

نجيب محفوظ قمة مصرية

الأديب المصري العالمي نجيب محفوظ (1911-2006) ولد بحى سيدنا الحسين، ورحل إلى مثواه الآخير من جامع الإمام الحسين، قمة مصرية، وأصالة مصرية عريقة، ماذا أقول عنه؟ إن حياته ثرية مليئة بالإنجازات الكبيرة فى مسيرة هذا الوطن العزيز مصر، روايات، قصص، سيناريوهات، أفلام، مسرحيات، مقالات، أحاديث، زخم معرفى مستنير، فيضان عطاء إعتمد على قيم التقدم: إتقان العمل، النظام، إحترام الآخر، المشاركة، التواضع، الحب...نجيب محفوظ رمز من رموز الثقافة المصرية والعربية والعالمية ومن هنا فهو قمة لأنه غير فى صفحة تاريخ الأدب العربى وكتب فيه بابا يسمى "باب الرواية العربية "، وتؤكد ذلك نادين جورديمر والحاصلة على جائزة نوبل فى الأدب عام 1991 تقول " إن نجيب محفوظ من أعظم المواهب الخلاقة فى فن الرواية "

إستيقظت ذات صباح فى عام 1988 بمدينة ليدز Leeds بإنجلترا ـ حيث كنت طالبا لدراسة الدكتوراه ـ على خبر عملاق مدهش وهو حصول الأديب المصرى الكبير نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الأدب، وفور وصولى للجامعة كان الزملاء من الجنسيات المختلفة، وكذلك الأساتذة الإنجليز يهنئوننى بأسلوب فيه تقدير وإحترام لحصول محفوظ على الجائزة، ليس هذا فقط وإنما كتبت الصحافة الإنجليزية بأن نجيب محفوظ يقف فى مصاف كتاب آخرين مثل تشارلز ديكنز، وبرنارد شو، وتولستوى، وإبسن، جابرييل جارسيا ماركيث وغيرهم، كنت فى

غاية السعادة أن يحصل مصرى عربى على جائزة نوبل فى الأدب لأول مرة فى تاريخ الجائزة، إنها إنطلاقة كبيرة، لكن هذا ليس بغريب على نجيب محفوظ أن يحصل على هذه الجائزة الهامة فى تاريخ الحياة الأدبية والعلمية لأنه قامة كبيرة، وهنا قلت الحمد لله، المصرى دائما قادرعلى تجاوز الحدود، ومنذ تلك اللحظة والأدب المصرى والعربى تجاوز الحدود، وأصبح يحلق فى الآفاق العالمية، وفتح بذلك نجيب محفوظ الأبواب المغلقة لكى نطل على العالم، ويطل العالم علينا بلغاته المختلفة من نافذة نجيب محفوظ.

"ويقول الناقد الفرنسى دانييل ريج إنه حتى عام 1970 كان الفرنسيون لا يعرفون محفوظ قط، في نفس الوقت الذي وصل فيه إلى قمة مجده وشهرته فى وطنه العربى، وفى تلك السنة ترجمت روايته " زقاق المدق" إلى اللغة الفرنسية، وأحس القارئ الفرنسي أنه أمام كاتب من طراز فيكتور هيجو وبلزاك وفلوبير"[1] ، وهذا لأن نجيب محفوظ كاتب يبدع بوجدانه وعقله ويتنفس عصره ومجتمعه ويعتصره فى أعماله القصصية والروائية. وهنا وقفة للتأمل حيث نستشف أن اللغة العربية كانت تمثل حاجزا بين محفوظ وقراء الغرب وذلك لأن المترجمين لم يهتموا كثيرا بترجمة هذه الأعمال الأدبية إلى لغاتهم وخاصة أن روايات محفوظ ضخمة الحجم، تجعل الناشرين والمترجمين فى حالة تردد من الإقبال عليها، إن ذلك مؤشر واضح لأنه من الضرورى أن نقدم أنفسنا للآخر، لا ننتظر أن يقبل علينا، أو أن نترك الأمور للمصادفة، مثلما يوجد مشروع للترجمة من الغرب إلى العربية وبشكل مكثف، فى المقابل من المهم

[1] محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل فى القرن العشرين، دار ومطابع المستقبل، 2000، ص 476.

وجود مشروع مماثل منظم وهو أن نترجم أعمال كتابنا ومفكرينا وفنانينا فى المجالات المختلفة إلى الآخر لكى يعرف الآخر عنا صورة متكاملة، ليست منقوصة، صورة حقيقية تكون رؤية موضوعية، لكى يدرك الآخر مع من يتعامل، ومن هنا نصنع جسورا للتواصل الإنسانى، إن الترجمة لعبت دورا هاما منذ فجر التاريخ فى التطور الحضارى، وهى قادرة على أن تلعب دورا أكثر نضجا فى ظل الثورة المعرفية التكنولوجية.

الفيلسوف الحكيم نجيب محفوظ يقول "حينما أتذكر طفولتي البسيطة وأنا اجري خلف عربة الرش في حي الحسين، ثم اسمع اسمي في الصحف ومحطات التلفزيون العالمية، يحدث ذلك في نفسي عجبا ودهشة. ولكن حينما أتذكر أنني احتفلت بعيد ميلادي السابع والسبعين، سنة حصولي على نوبل، منذ أيام تتساوي في نفسي كل كنوز الدنيا."[1] تنطلق دلالات منيرة من هذه المقولة التى قد تبدو بسيطة بينما هى فى غاية العمق الفلسفى: عالم الأرابيسك، روح الشرق، تواشيح روحانية، مصر العتيقة، تعددية ثقافية، من جد وجد، من المحلية إلى العالمية، الزهد فى الزخرف وقيمة العمل باقية.

حينما حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل سعد بها ولكنه قال " كان لى أساتذة أحق بها منى وهم طه حسين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم" إنه إعتراف بالفضل لأساتذة تعلم منهم فى سلوكيات حياتهم وفى إبداعاتهم الأدبية، إنه يعترف بالجميل، إنها الأصالة ويقول نجيب محفوظ عن توفيق الحكيم " لقد تأثرت بتوفيق الحكيم... هذا الكاتب الكبير يقف وراء

[1] ابراهيم عبد العزيز: أنا نجيب محفوظ...سيرة حياة كاملة، نفرو للنشر والتوزيع، 2006، ص 11.

جيلنا كله من الناحية الفنية كان الحكيم ولازال النهر الدفاق الذي تتفرع عنه جداول كثيرة في الرواية والقصة والمسرحية. لقد تتلمذت عليه أثره في حياتي فوق ما تتصور ولولا توفيق الحكيم ما أصبحت أدبياً كنت أدرس الفلسفة وأعتبر الأدب على ما سبق حياتي ولما دخل الحكيم من بوابة الأدب عرفنا قيمة الأدب وكيف أنه يكرم الإنسان... " [1] وهكذا يقول عن مسرحية "أهل الكهف " وكانت تمثل شيئاً جديداً ورائعاً بحيث اعتبرتها بداية جديدة للفن الأدبي العربي. كان تأثيرها كبيرا جداً نتيجتها الأساسية الزمن ونقده لم يفارقني حتى " أنها " أحسن ما قرأت له لكن أنا أعتبر روحي خرجت من " عودة الروح "[2]

وقبل تسلم جائزة نوبل كان هناك مزايدات على أهمية الجائزة، وشرعيتها، وكيفية حصول نجيب محفوظ عليها، وفى هذه الفترة حضرت بعض الجهات إلى نجيب محفوظ يعرضون عليه ضرورة رفض الجائزة لأنها من المجتمع الغربى الذى يجب ألا نتعامل معه، وهم سوف يعطونه القيمة المالية التى يريدها والتى ستكون أكبر من الجائزة، وهنا وقف نجيب محفوظ وقفة صلبة ـ بلا تردد ـ ورفض هذا العرض المغرى، لأنه وطنى، ولأنه صاحب مبدأ، لم يتغير عن موقفه، ولم يتلون مع الموجات المتلونه، وقال قولا شهيرا لهؤلاء " الآن أنا لا أملك الرفض لأن الجائزة ملك لمصر وللعالم العربى "، نعم هذه حقيقة يؤكدها فى كلمته التى قيلت بمناسبة تسليم الجائزة لإبنتيه فى الإحتفال بالسويد " أنا ابن حضارتين الأولى الحضارة الفرعونية وهى منذ سبعة آلاف سنة، والثانية الحضارة

[1] ابراهيم عبد العزيز: أنا نجيب محفوظ..سيرة ذاتية، المجلس القومى للشباب، السلسلة الثقافية للطلائع، يناير 2006، ص 60.
[2] المرجع السابق، ص 61.

العربية وعمرها ألف وربعمائة سنة" ابن الحضارتين تربى على القيم النبيلة التى تسمو على الصغائر، وتسير فى طريقها تعلم الناس بالأفعال والأقوال، لقد كرمته مصر بحصولة أيضا على " قلادة النيل " أرفع الأوسمة المصرية.

موقف نبيل يضاف إلى قيم نجيب محفوظ لقد قسم مبلغ جائزة نوبل على أهل بيته، وأخذ نصيبه الشخصى وتبرع به إلى " بريد الأهرام" لمساعدة المحتاجين، إنها المشاركة المجتمعية التى تسعى للإرتقاء بالمجتمع نحو الأفضل، عاش نجيب محفوظ مع الناس وبعدسته الفاحصة والراصده يتأملهم، ويكتب عنهم، آمالهم أحلامهم طموحاتهم، كل ذلك من واقع الحياة، أعمال نجيب محفوظ ملتزمة بالقضايا الإجتماعية والسياسية بأسلوب فنى جذاب، يشرح ويحلل الواقع بكل شخصياته بأبعادها النفسية والإجتماعية والجسدية، شاهدا بها على تطور التاريخ المصرى خلال القرن العشرين، هكذا نجد نجيب محفوظ شاهدا على عصره، رادوبيس، كفاح طيبة، بين القصرين، قصر الشوق، السكرية، ثرثرة فوق النيل، خان الخليلى، اللص والكلاب، ميرامار، الكرنك، الحرافيش، السراب، القاهرة الجديدة، أهل القمة، الحب فوق هضبة الهرم، أصداء السيرة الذاتية، أحلام فترة النقاهه...تحولات ومنحنيات متعددة ثورة 1919، مجتمع ما قبل ثورة 1952، ثورة 1952، مراكز القوى، نكسة 1967، إنتصار 1973، الإنفتاح الإقتصادى، حرية التعبير...يقول نجيب محفوظ " إن على الكاتب أن يجد إيقاعه العميق... وأيضا عليه أن يبحث عن الشكل المناسب لأدبنا الذى نستوحيه من مجتمعنا المحلى. " لهذا محفوظ إنطلق إلى العالمية من قمة المحلية، إن الحارة المصرية فى أدب محفوظ

لا تمثل الحارة فقط وإنما هى تمثل فى معنى آخر المجتمع كله، وفى مستوى آخر العالم بأسره بكل شخوصه وقيمة ومتغيراته، إنها الرمزية التى تنطلق من الواقع، لقد أقام نجيب محفوظ حياته على الحب، حب العمل، حب الناس، حب الحياة، وأخيرا حب الموت للعودة إلى خالقه، رحم الله نجيب محفوظ رحمة واسعة.

نجيب محفوظ والأساتذة

الأستاذية معرفة ورؤية، الأستاذية إتساق بين السلوك والعمل، الأستاذية إحترام للآخر، الأستاذية إعتراف بالجميل، الأستاذية تفرد فى العطاء، الأستاذية مبادرات تبنى مشروعات حضارية، الأستاذية حب وعشق للوطن، الأستاذية شمس يستضاء بها، الأستاذية منهج حياة، هكذا تتجلى هذه المعانى فى نجيب محفوظ وفى شخصيات آخرى يتحدث عنها الأديب الكبير فى كتاب شيق بعنوان " أساتذتى "[1] من إعداد إبراهيم عبد العزيز الذى يحاول دائما أن يقترب من الجوانب الإنسانية فى الشخصيات التى يكتب عنها، وهذا جانب متميز وهام فى مسيرة الشخصيات التى أثرت فى مجتمعها، ويمكن أن يكون لها بعدا تنمويا للأجيال القادمة، لكى تحمل مشعل التنوير لمستقبل أفضل.

ومن الشخصيات التى تعرف عليها الأستاذ الأديب نجيب محفوظ، المبدع يحيى حقى (1905-1992) صاحب " خليها على الله" و " أم العواجز" و "ناس فى الظل" و "دماء وطين" و" البوسطجى" و "صح النوم" والثرية " قنديل أم هاشم " حينما قرأها محفوظ سنة 1945، لفت إنتباهه قوة الفكرة وجمال اللغة ورشاقة الأسلوب ـ كان يحيى حقى يكتب قبل ذلك التاريخ، فهو من مؤسسى القصة القصيرة فى مصر والعالم العربى ـ وسأل عنه الأستاذ فعرف أنه يعمل فى السلك الدبلوماسى، أما اتصاله به وإقترابه منه فقد كان فى نادى القصة الذى كان يعتبر صالونا ثقافيا

[1] ابراهيم عبد العزيز: أساتذتى، ميريت، 2002.

للأدباء يتناقشون ويتحاورون فيه حول أعمالهم الأدبية وكذلك الأعمال العالمية، أما الاقتراب من الأستاذ يحيى حقى أكثر فقد كان فى الفترة التى أنشأ فيها فتحى رضوان وزير الارشاد، مصلحة الفنون (1955-1959) وكان يحيى حقى أول وآخر من تولاها كمدير لها، حيث كان له مساعدان هما نجيب محفوظ وأحمد باكثير. ارتبط الأديب الكبير نجيب محفوظ بالأديب يحيى حقى منذ ذلك الحين، حيث عمل مديرا لمكتبه، وقد لمس فيه البساطة والإحترام والرؤى التقدمية والاستنارة، وحين فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أهدى جائزته ليحيى حقى كواحد من المبدعين المصريين الذين يستحقونها، ولعمق التقدير والإحترام كان كل منهما يهدى كتبه للأخر، وعلى قلة ما ابدع يحيى حقى فان آثاره مرشحة للبقاء والخلود، وعلى الرغم من ذلك كانت الصداقة بينهما لا تمنع يحيى حقى من نقد أعمال نجيب محفوظ بالايجاب أو بالسلب، وكان نجيب محفوظ بدوره يتفهم ذلك تماما دون ضجر، لأنه يدرك معنى النقد الموضوعى الذى يساعد على التطور والرقى، وحينما توفى يحيى حقى حزن نجيب محفوظ على وفاته فقد كان له صديقا لا يعوض، صديقا نزيه الفكر، صافى القلب بسيطا ممتعا فى أحاديثه وفى كتاباته صاحب روح ساخرة ونكتة بارعة وفكر مستنير.

أما توفيق الحكيم (1898-1987) صاحب "عودة الروح" و "عصفور من الشرق" و " تحت شمس الفكر" و " الطعام لكل فم" و "عدالة وفن" و "التعادلية " و " عودة الوعى" وغيرها من الدرر، فكان له فضل كبير فى تحويل مسار حياته ومسار حياة جيله فى الإرتباط بالفن والأدب يقول نجيب محفوظ " أذكر أنني عرفت توفيق الحكيم عن طريق مقالتين،

واحده لطه حسين والأخرى للعقاد والاثنتان عن شيء جديد أسمه "أهل الكهف " مقالة طه حسين كانت بالغة الروعة، والعقاد أيضا أثنى عليها ثناء لم يكن منتظراً منه ... في هذه الفترة كانت الأعمال الإبداعية نادرة.. ولكن احتكاكنا بالجديد جاء عن طريق توفيق الحكيم، وأذكر وقتها أنني كنت طالباً بكلية الآداب اطلعت على " أهل الكهف " وكانت تمثل شيئاً ورائعاً بحيث اعتبرتها بداية جديدة للفن الأدبي العربي. كان تأثيرها كبير جداً حتى " أنها " أحسن ما قرأت له، لكنى أنا أعتبر روحي خرجت من " عودة الروح "، إن ما قرأناه من روايات قبل توفيق الحكيم في أدبنا العربي "حديث عيسى بن هشام" " للمويلحي، "زينب" لمحمد حسين هيكل، "فتاه غسان" لجورجى زيدان، " ابنة الملوك" لمحمد فريد أبو الحديد، وبعض ما ألف طه حسين، والمازني من الروايات. هذه الروايات لها قيمتها وتأثيرها" ولكن حين قرأ نجيب محفوظ "عودة الروح " لتوفيق الحكيم شعر بأنه انتقل من مرحلة إلى مرحلة جديدة ومن مجال إلى مجال أخر فقد كان لعودة الروح سحر وجاذبية خاصة مثل الروائع المترجمة "الحرب و السلام " لتولوستوى " و " البؤساء " ليفيكتور هوجو، و " فاوست " لجوته، ورغم أن فيها ما يشبه المقالات وأيضا رغم خروجها على أشياء كثيرة في الفن الروائي .. رغم كل هذا كان لها امتياز وسحر يخصها وحدها جعلها تفرض روحها على عالم الرواية لقد كانت المدرسة الأخيرة أو المدرسة التي نشأ في كنفها وتخرج منها، فالرواية لديه عملية سحرية من البداية حتى النهاية،الشخصيات اللغة المواقف الحبكة ...ومن هنا كان الحكيم فنانا ساحراً من الطراز الأول ، وكل شيء وضع يده فيه كان يشع منه سحراً، يحلل محفوظ الموقف ويقول " الأساتذة السابقون على الحكيم كانت أساليبهم تجمع بين التراث والمعاصرة في بنية واحدة

مثل أسلوب محمد حسنين هيكل ، طه حسين والعقاد، إلى أخر هؤلاء الرواد لكن الحكيم ظهر بلغة جديدة أفضل أن أسميها لغة توفيق الحكيم لأنها لغة خاصة به وحده، لم يسبقه إلها أحد فأسلوب الحكيم، هو أسلوب الحكيم، ولغة الحكيم هي لغة عذبة وبسيطة وسلسة ومصرية، ومع كل هذا هي ابنة شرعية للتراث العربي، وقد تجلت هذه اللغة في الحوار فقد كان رحمة الله يجد سعادته في الحوار وكل سحره تلمسه في الحوار حتى في أحاديثه في كتاباته، ويبدو أنه خلق ليكون مسرحياً قبل كل شيء، كان الحكيم يمتاز بذكاء نادر وثقافة موسوعية مكنته من التقاط الجزيئات التي قد لا ينتبه كثيرون إليها سواء في التراث أو التاريخ أو الحياة."[1]

والشخصية الثالثة عباس العقاد (1889-1964) المفكر والأديب والشاعر صاحب الدواوين " وهج الظهيرة" و "وحى الأربعين" و "هدية الكروان" والدراسات الأدبية " الثقافة العربية" و" دين وفن وفلسفة" و " أثر العرب فى الحضارة الأوربية" و" عبقرية محمد صلىالله عليه وسلم" و "عبقرية عمر" و "حياة المسيح" و "القرن العشرين ما كان وما سيكون" و "سارة" يكن الأستاذ نجيب محفوظ كل التقدير للعقاد رغم أنه لم يلقه ولم يعرفه معرفة شخصية، وحضر له فقط محاضرة واحده فى كلية الآداب، وهو أيضا لم يصافحه مره، إلا أنه يعتبر نفسه من تلاميذه وأتباعه ومريديه، يقول نجيب محفوظ " بالطبع لقد خلق العقاد عندي قيما عزيزة أولاً قيمة الأدب كفن له سموه لا وسيلة تكسب، كان دائماً يرفع الفن إلى مستوى الرسالة المقدسة، وثانياً أهمية الحرية في الفكر، وفي حياة الإنسان عموما، ثم نظرياته النقدية في الشعر التي جعلتني أتذوقه

[1] ابراهيم عبد العزيز: أنا نجيب محفوظ...سيرة ذاتية، المجلس القومى للشباب، السلسلة الثقافية للطلائع، يناير 2006، ص 61-62.

جيداً، وكذلك عرفت عنده أول قصة تحليلية نفسية وهي "سارة" "[1] كان لنجيب محفوظ مع العقاد مواقف وطرائف فقد حدث أن تعرض العقاد ذات مرة للرواية وظلمها حين قال : إن الرواية ليست فناً كالشعر، أي أنها ليست في منزلة الشعر فردعليه نجيب محفوظ بأدب قائلا : كما توجد الرواية الجيدة، يوجد الشعر الردئ أيضاً، والحقيقة أن العقاد لم يرد لأن محفوظ تكلم بموضوعية شديدة وبأدب شديد دون استفزاز أو هجوم، بينما نجد العقاد فى موقف نزيه مع نجيب محفوظ ثلاث مرات الأولى: حين تقدم لمسابقة مجمع اللغة العربية ضمن من تقدموا بقصصهم، ولكنهم اختلفوا لمن تكون الجائزة؟ وكان المازني في لجنة التحكيم، وكان يريد إنصاف محفوظ، وبالمصادفة كان العقاد يمرعلى المازني فوجد خناقة فقالوا له تعالى لتكون أنت الحكم، كانت جماعة التقليديين والأزهريين يريدون إعطاء الجائزة لمحمد سعيد العريان, والمازني يريد إعطاء الجائزة لمحفوظ, فلما قرأ العقاد لكل منهما, قال : أوجه المقارنة بينهما , وانتهى الخلاف إلى إعطاء الجائزة مناصفة"، الثانية حينما يذكر د. توفيق الطويل- يرحمه الله- صديق محفوظ أن العقاد فى صالونه يثنى على إصدارات نجيب محفوظ، أما المرة الثالثة التي أنصفه فيها فكانت بعد ذلك بسنوات حين قال العقاد في حديث تلفزيوني أذيع قبل وفاته بقليل: إن عندنا في مصر من يستحق الفوز بجائزة نوبل مثل نجيب محفوظ, وبعد حوالي ربع قرن تحققت نبوءته. هكذا كانت وتكون الصداقة الحقة والإنسانية المخلصة، والأستاذية.

[1] المرجع السابق ص 63.

صبرى العسكرى
والتناغم بين الأدب والقانون

صبري العسكري إنسان تتنازعه موهبتان، الموهبة الأولى الكتابة الأدبية، والموهبة الثانية حبه للمحاماه، وإن كان ظاهر الأمر أن الموهبتين متناقضتان حيث الأدب يحتاج إلى خيال منطلق ولغة فضفاضة وأحاسيس متوهجة، وعلى الطرف الآخر نجد القانون يحتاج خيال واقعى، ولغة محددة، وأحاسيس منضبطة، إلا أن جوهر الموهبتين واحد حيث نجد الأدب والمحاماه ـ وجهين لعملة واحده ـ يبحثان عن قيم الحق والعدل والحرية من خلال القصة الأدبية أو الحكاية الموجودة فى الواقعة أو القضية القانونية، إن مبدأ البحث عن الحقيقة فى عالم المحاماه وإصلاح واقع الناس، هو نفس المبدأ الفنى الذى يهدف إليه الأدب والفن من أجل المجتمع.

ومن هذه الروح الإنسانية تتجسد شخصية صبرى العسكرى الذى يحدثنا عنها الكاتب إبراهيم عبد العزيز فى براعة كاشفا عن كثير من الجوانب الأدبية والفنية والإنسانية من خلال مشوار حياته المتنوع والممتع فى كتابه " صبرى العسكرى خمسون عاما بين الأدب والمحاماة "[1] لقد كتب العديد من القصص والأعمال الأدبية منها قيود محطمة، اللعبة التى انتهت، دعوة للحب، دنيا غير الدنيا، صوت ولا صدى، كلمات فى النقد

[1] ابراهيم عبد العزيز، صبرى العسكرى حمسون عاما بين الأدب والمحاماة، الناشر 2000 للثقافة والنشر،2006.

والسياسة، وغيرها، وأيضا دفاعه فى قضايا شهيرة للأدباء يوسف إدريس وتوفيق الحكيم ثروت أباظة د.عبد العزيز شرف، جمال الغيطانى، عبد الرحمن الأبنودى وغيرهم، وإن كان صبرى العسكرى من أنصار مبدأ " الصلح خير " وهذا إن دل فإنما يدل على نبل خلقه، ومن هنا فإن إبراهيم عبد العزيز يرى أن أكثر قضاياه تنتهى قبل أن تبدأ وإذا بدأت لا تكتمل، وإذا إكتملت فالنتيجة فى جميع الأحوال واحدة – وهى أن الصلح خير، نصيحة يقدمها فى العادة لكل المتقاضين: "الخسارة المحسوبة أفضل من مكسب فى علم الغيب خاصة ان التقاضى ليس رحلة ممتعة وإذا كان لا مفر من الوصول بالمنازعة إلى ساحة القضاء، فإن صبرى العسكرى لم يكن يضيع فرصة تواتيه لعدم الإستمرار فى النزاع، عن قناعة دائمة بأن لكل مشكلة حل بالتى هى أحسن: المودة والمعروف ! وصبرى العسكرى ليس مجرد محام للادباء يعرفونه ويثقون به كناصح أمين، بل إنه واحد منهم عرف طريق الأدب منذ ان كان طالباً بمدينة دمنهور، التى كانت ككل الأقاليم فى النصف الأول من القرن العشرين معملاً لتفريغ الأدباء، يشتهرون بعدها فى القاهرة وتصبح أسماؤهم ملء السمع والبصر. وكانت البيئات الأدبية فى القرى ومدن الاقاليم تعتبر فترة تدريب غنية وكان بإستطاعة كل موهوب أن يبعث بإنتاجه من قريته أو مدينته النائية إلى القاهرة فتتلقاه بالرعاية والترحيب ـ فالقاهرة منارة ثقافية ـ فالقيمة كانت للمكتوب بصرف النظر عن الكاتب سواء كان من أبناء الباشوات أو من أبناء الفلاحين ومن هنا كانت مصر تموج بحركة أدبية وثقافية وفنية عامرة.

ويحكى صبرى العسكرى كيف بدأت تجربته الإبداعية والتى تمثلت بكتابة القصة القصيرة وكانت البداية قصة عنوانها "الصداقة" فحينما كنت فى قريتنا الصغيرة، التى تقع فى منتصف المسافة بين مدينتى شبراخيت ودمنهور، وأرسلتها بالبريد إلى جريدة "صوت الأمة" فى اخر صيف 1948، وكانت المفاجاة أن أجدها منشورة، ودفعنى ذلك إلى مداومة الكتابة لتلك الجريدة ولغيرها من الصحف والمجلات التى كانت تهتم بنشر القصص القصيرة. وبقيت على ذلك الحال. وقد بهرني أن أرى اسمي من بين أسماء الكتاب المعروفين مثل: محمد تيمور بك، سلامة موسى، عباس حافظ قدرى قلعجى، جميلة العلايلي، أمين سلامة. وآخرين، إن النشر للمواهب الشابة يدفع بها إلى الأمام دائما.

وكان صبرى العسكرى ينشر فى الصحف اليومية: صوت الأمة، الكتلة، الزمان، وفى المجلات الأسبوعية: النداء، الفن، القصة، روايات الأسبوع، الصباح، كلمة ونصف، العزيمة، الأستوديو، ومجلة الدنيا السورية لصاحبها عبد الغنى العطرى والطريف فى ذلك الزمن أن الصحف السياسية مثل "الكتلة" – الناطقة باسم الحزب الذى شكله مكرم عبيد باشا بعد أن انشق على الوفد – كانت تشكو من ضيق ذات اليد ولكى تواصل الصدور فى الميعاد كانت تحتفظ بالمواد الأدبية مصفوفة لتعيد نشرها إذا ما حدث عجز فى المادة التحريرية وذلك ما حدث له أكثر من مرة ! الكتابة لدى صبرى العسكرى ضرورة إجتماعية تنويرية تعبر عن الواقع وتسعى للإرتقاء به نحو الأفضل والأجمل.

وهنا قصة شهيرة عن ضرائب الأدباء والقصة تبدأ عندما وجهت إليه دعوة من الراحل سعد الدين وهبة رئيس إتحاد الكتاب فى ذلك الوقت، لحضور لقاء مع نائب رئيس الوزراء للمالية د.عبد الرازق عبد المجيد لمناقشة مشكلات الضرائب مع الأدباء والفنانين وتوجه إلى إحدى المقار التابعة لوزارة الثقافة والإعلام تلبية للدعوة بوصفه مستشاراً لإتحاد الكتاب، وتبين له عند دخول قاعة الإجتماع أن الجميع كتابا وفنانين قد اصطفوا على الكراسى وتحلقوا حول مائدة شغلت النصف الداخلى من القاعة، ولأنه لم يجد لنفسه مكاناً بينهم اتجه إلى الجزء الباقى من القاعة، وجلس على أحد المقاعد المعدة لإستقبال الضيوف، لكى يستمع إلى ما يقال عن بعد، ومن خلال الحديث تبين أن السيد نائب رئيس الوزراء له موقف معاد لرغبة الجميع فى رفع العبء الضريبى عن كاهل الأدباء أو على الأقل تخفيفه، ولكن أشار له المرحوم سعد الدين وهبه للإنضمام للمجموعة، وتفضل الحضور بأن أخلوا له مكاناً وللصدفة السعيدة جاء المكان فى مواجهة سيادة النائب وبادر صبرى العسكرى بعقله الراجح ولغته الفصيحة إلى الإدلاء بوجهة نظره والتى بالطبع تدافع عن الكتاب، بأن ما يتم تحصيله من ضرائب عن كل الكتابات التى تنشر فى مصر فى الصحف أو فى الكتب لا تساوى الجهد الذى تبذله مصلحة الضرائب فى التحصيل. وضرب المثل بالأستاذ المرحوم توفيق الحكيم إذ كانت الضرائب تطارده بالمطالبات المتكررة – مما كان يقلقه بما لا يزيد عن مبلغ 600 جنيه عن المدة المطالب بها – وطالب بالإعفاء الضريبى لما أسماه (الكلمة المكتوبة)، ولكن السيد النائب أبى إلا أن يغلق معه الحوار تمسكاً بشعار الدولة فى ضرورة المساواه بين الجميع، وأن العبء الضريبى شرع فى تحقيق العدالة فى المجتمع، ولا ينبغى الإعفاء منه

تحت أى شعار. وكان من الضرورى أن يرد صبرى العسكرى على حجته (العمومية) بمثال محدد وواضح، فقال له: إنكم تعفون القائمين بتربية النحل من الضرائب.. فهل الكُتّاب القائمون بتربية العقول أقل شأناً ممن يتاجرون فى عسل النحل؟

ومما يثير العجب أن موقف سيادة النائب - عليه رحمة الله – قد انقلب كلية بعد نشر صبرى العسكرى مقالا فى هذا الموضوع بمزيد من التفاصيل والحجج التى تدعم هذه الرؤية، وبالفعل وصدر قانون بإعفاء الكلمة المكتوبة من الضرائب، ومازال معمولاً به حتى الآن، نعم شكرا لصبرى العسكرى الذى يؤمن بأن المحاماة مهنة المبادىء لا الإثراء، ويؤمن ايضا بأنه لا نهاية للعلم ولا نهاية للتعلم، وأن الإنسان منذ لحظة رؤيته لنور الدنيا وهو لا يكف عن التعلم، يتعلم من البيئة ومن الأسرة ومن الجامعة وأيضا من المهنة التى يعمل بها، ولا يوجد فى الدنيا ما يحول بين الإنسان وبين أن يتعلم، وأيضا أن يساعد الآخرين، ولا أنسى أنه منذ أكثر من ربع قرن تقابلت مع الأستاذ صبرى العسكرى فى مكتبه أسترشد برأيه الحكيم فى قضايا فنيه وإذا به يعرفنى على الكاتب الكبير نعمان عاشور رجل المسرح المصرى صاحب "الناس اللى تحت" و"الناس اللى فوق" و"عيلة الدغرى" و"برج المدابغ" وغيرها من الأعمال القيمة، نعمان عاشور الذى عبر عن واقع المجتمع المصرى وطموحاته بلغته الواقعية الساحرة. إن هذا المزيج المتناغم بين روح الأدب وروح القانون إنما هو للرقى الإنساني الذي نطمح إليه جميعا.

ابن خلدون منارة الفكر الإنسانى

في مسيرة التاريخ الإنساني، الزمن محايد، ونحن ما نصنع داخل بعد الزمن، هناك شخصيات تغير من صفحة الحياة، تؤثر فى التاريخ وتغير من مجراه، وهناك شخصيات آخرى تأتى للحياة وكأنها لم تأت، تحضر وكأن شيئا لم يكن، لا شىء يحدث، لا شىء يتأثر، لا شىء يتطور.

إن الشخصية التى نتحدث عنها اليوم، شخصية من الطراز الأول، الذي أنوارها تتلألأ فى سماء الكرة الأرضية، من وراء الأطلسى، من فوق جبال الأندلس، من إسبانيا، الأشعة تتوهج وتتجمع وترسم صورة جميلة لشخصية عربية أصيلة رحلت عن عالمنا منذ ستة قرون، ولكن مازال ضوؤها مشعا يأخذ بالأبصار والعقول، إنها صورة العالم المفكر ابن خلدون.

إن الإحتفال بابن خلدون يمثل ظاهرتين فريدتين نتوقف عندهما للتأمل، الظاهرة الأولى هى التعرف على حياة ذلك الرجل الذي استطاع أن يجعل من ذكراه نقطة إنطلاق لأبعاد إنسانية وفكرية تتجاوز حدود الزمان والمكان وهنا يتجلى سؤال من هو ابن خلدون؟ وتكون الإجابة بأنه هو أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد، المشهور بابن خلدون، وهو من مواليد تونس سنة 732 هـ/ 1332 م، تلقى العلم عن والده وكثير من علماء المغرب والأندلس، كما أنه درس علوم القرآن الكريم والعلوم الشرعية واللسانية والفلسفة والمنطق، عاش فى تونس ثم ذهب غلى

المغرب وتقلد بضعة مناصب منها أن السلطان أبو سالم عينه كاتبا لسره، ثم ولاه القضاء، ولما خلع أبو سالم رحل ابن خلدون إلى غرناطة بالندلس سنة 1362 م، وذلك للعلاقة القديمة التى بينه وبين سلطانها ووزيرها، ولقد قام ابن خلدون بتكليف خاص من السلطان بعقد الصلح بينه وبين ملك قشتالة لما كان لديه من عقل راجح، وحجة بالغة فى البرهان، وحكمة فى تصريف الأمور، ولكن لأن أهل الشر يفسدون الأعمال الطيبة لذلك أفسد أهل الشر العلاقة بينه وبين السلطان فترك ابن خلدون الأندلس إلى المغرب، ثم عاد مرة آخرى بعد بضع سنوات إلى الأندلس، ولكن الأمراء كانوا يخشونه فأرجعوه إلى المغرب مرة آخرى سنة 1374م ولكن فى سنة 1382 م ذهب ابن خلدون إلى مصر، فرحب به السلطان برقوق الذى عينه قاضيا، وخلع عليه ولقبه "ولى الدين" فلم يدخر ابن خلدون وسعا فى الإصلاح وحرصا على المساواة فى وجهة نظرة، متوخيا للدقة والإخلاص فى العمل عزوفا عن المحاباة ومن ثم لقى ابن خلدون التكريم من أهل القاهرة وعلمائها، وتجمع حوله طلاب العلم ينهلون من معارفه وعلومه، فاتخذ ابن خلدون من الأزهر مدرسة يلتقى فيها بطلاب العلم، وقد تلقى عنه عدد كبير من العلماء منهم تقى الدين المقريزى وابن حجر العسقلانى.

أحب ابن خلدون القاهرة بكل سحرها وجمالها وبكل ما فيها من مظاهر الحضارة فقال عنها " فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل

سيحه، ويحيى إليهم الثمرات والخيرات ثجه، ومررت فى سك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزجر بالنعم..." وعاش بمصر حتى توفى فى رمضان سنة 808 هـ، مارس سنة 1406م.

لم يصل إلينا من آثار ابن خلدون إلا كتاب العبر ومقدمته وملحقه فى التعريف بابن خلدون، وقد ذكر بعض المؤرخين أن ابن خلدون قد ألف "شرح البردة" ولخص وعلق على كثير من كتب ابن رشد، ولخص مختصر الإمام فخر الدين الرازى، ثم ألف كتابا فى الحساب، ولكن لم يصل إلينا شىء من تلك الكتب.

لقد كان لدى ابن خلدون فكرة أصيلة ورأى غير مسبوق وهو إنشاؤه "علم العمران" أو "علم الإجتماع"، وهنا يطرح سؤال مهم، كيف توصل ابن خلدون لهذا العلم؟ نظرا لأن ابن خلدون باحث مدقق، وعالم محلل، يتأمل الظواهر من حوله، يعمل على رصدها، وتحليلها وتصنيفها، ومعرفة الأسباب لتكوين تلك الظاهرة، إستطاع أن يخلص بنتائج وأيضا يستخلص من النتائج منهجا خاصا به، وبمزيد من التوضيح من خلال دراسة ابن خلدون لكتب التاريخ التى ألفها المؤلفون السابقون عليه مثل ابن اسحاق والطبرى والمسعودى، فوجد أن هذه الكتب مليئه بالأخطاء، وأخذ يبحث ابن خلدون عن الأسباب التى ساقت المؤرخين إلى الخطأ فوجد منها التشيع للمذاهب، عدم معرفة القصد من الخبر، توهم الصدق ولكن هناك سببا آخر ذو أهمية بالغة وهو " الجهل بطبائع الأحوال فى العمران" ويشرح ابن خلدون ذلك ويوضح قائلا " إن كل حادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته، وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان

السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال ومقتضياتها، أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب"[1] نفهم من ذلك أن السبب الرئيسى من أخطاء المؤرخين هو جهلهم وعدم معرفتهم بطبيعة وقواعد النظم الإجتماعية، وعلى ذلك من الضرورى تخصيص علم لدراسة العمران أو الإجتماع لكى يدرسه ويفهمه المؤرخ قبل أن يبدأ فى عمله، إن ابن خلدون بهذه الرؤية يتجاوز فى هذا الشأن أوجست كونت وأميل دوركايم وغيرهما من علماء الإجتماع الذين يأخذون بالمنهج العلمى فى إستقراء الواقع وفق المعلومات والمعطيات التى يتم رصدها وتحليلها، ويؤكد ذلك قول المؤرخ الإنجليزى أرنلد توينبى من أن ما صاغه ابن خلدون من فلسفة للتاريخ تمثل بما لا يدع أى مجال للشك أعظم عمل كان قد أنجزه الفكر الإنسانى فى كل العصور وفى كل بلدان المعمورة.

لقد كان ابن خلدون عالما مجتهدا ورائدا مجددا فى كثير من العلوم والفنون، على هذا يعتبر ابن خلدون رائدا من رواد فن الترجمة الذاتية (الأوتوبيوجرافي) ويعد كتابه " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا " من المراجع والمصادر الأولى لهذا اللون من فن الترجمة الذاتية حيث كتب وشرح وحلل بشكل مستفيض وبتفاصيل كثيرة ودقيقة عن طفولته وشبابه إلى قبيل وفاته.

أما الظاهرة الثانية فهى كيف نحتفل بالعلماء، كيف نسترجع تاريخ النخبة ونحاول إكتشافه من جديد والإستفادة منه، كيف نتعامل مع التراث بروح عصرية مجددة، وكيف نقدم هذه النخبة للوطن المحلى وأيضا للمستوى

[1] حسن سعفان: معجم أعلام الفكر الإنساني، تصدير، د. ابراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص 123.

الدولى، كيف نستفيد من الحدث؟ كيف نصنع البرامج والخطط لتقديم الحدث؟ كيف نروج للحدث؟ لم تعد الثقافة فى الغرف المغلقة بين القاعات والصالونات، بل أصبحت الثقافة تنطلق لكى تحلق بمستويات متعددة من التنوع محاضرات، ندوات، كتب، تعبر عنه أجهزة الإعلام من صحافة وتليفزيون وأيضا عبر الإنترنت لكى ينتشر لكل الناس، تستفيد الدول من الأحداث الثقافية لكى تحقق أبعادا سياسية وسياحية وإقتصادية، صنعت إسبانيا من هذه الإحتفالية بابن خلدون رؤية حضارية عملية فى تطبيق مقولة حوار الحضارات أو بمعنى آخر أوربا تحتفل بعالم عربى إسلامى نظرا لعطاءه العلمى للفكر الإنسانى ما أجمل ذلك، وهذه الإحتفالية أيضا جمعت اللقاء بين الملوك والرؤساء وبين مسؤولي منظمات ومؤسسات دولية. إن هذه الإحتفالية صنعت توهجا سياحيا من زيارات لكثير من الجمهور لمشاهدة مخطوطات وتماثيل وآثار لهذا العالم. لقد تضامنت وتعاونت إسبانيا مع مؤسسات فى دول آخرى من أجل تقديم هذه المناسبة ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ المكتبة الوطنية الفرنسية، المعهد الأسبانى فى البرتغال، معهد الدراسات الشرقية فى إيطاليا، جامعة أثينا هذا بالإضافة إلى جامعة أشبيلية وجامعة غرناطة وجامعة قرطبة فى إسبانيا.

أتمنى أن يقيم عالمنا العربى إحتفالية فعلية عن ابن خلدون لكي ننتفع بعلوم أجدادنا لأننا أولى بالاحتفال، وأولى بالإستفادة بمسيرة وتاريخ حياة هذا المفكر لكي نواجه تحديات المستقبل بفكر مستنير يصنع تواصلا حضاريا وإنسانيا.

ميتشيو كاكو والمستقبل

إن أصحاب الرؤى المستقبلية لا يقنعون بفهم الماضى، وإنما هم يريدون أن يستخدموا معرفتهم لتنمية مزيد من الفهم للمستقبل ـ لأن المستقبل ليس تكرارا للماضى ـ وهم أيضا على قناعة بأن المستقبل هو بؤرة الفعل الإنسانى، وأن القيمة التى يطرحها الماضى هى إستخدام المواقف والأحداث كمصدر إرشادى لإلقاء الضوء على الإحتمالات المستقبلية، إن هذا لا يعنى أن معرفة الماضى تصبح قاعدة وحيدة للمستقبل، لا ، وإنما هناك معطيات آخرى مثل دقة المعلومات، وكيفية النظر إلى هذه المعلومات من زوايا عقلية مختلفة، والقدرة على إستنتاج نظريات وآراء موضوعية ـ دون تأثير رغباتنا وأهوائنا الشخصية فى تقييم الأشياء ـ من هذه العملية الفكرية تكون ركيزة للمستقبل.

يقول ويليس هارمان فى كتابه " دليل غير كامل إلى المستقبل " " غالبا ما تفترض، بتبرير كبير إن المستقبل الأكثر رجحانا هو الاستمرار المباشر للإتجاهات الماضية، بيد أن من الواضح اليوم أن كثيرا من الإتجاهات القائمة منذ أمد لا تستطيع الإستمرار دون تغير، والتزايد السكانى لا يمكن له أن يزداد زيادة كبيرة، وإستخدام الطاقة العالمى لا يمكن له أن يزداد على ما لا نهاية، ونماذج إستهلاك المعادن العالمى يجب أن يتغير. والحقيقة انه كان واضحا طيلة عقود عديدة أن المجتمع الحديث قد انفصل عن الماضى فى عديد من التوجهات." [1]

[1] ادوارد كورنيش: المستقبلية، ترجمة محمود فلاحة، دراسات فكرية، دمشق، 1994، ص 93-94.

لقد تغير الموقف الإنساني من المستقبل نتيجة التطورات شديدة السرعة فى مجالات التكنولوجيا، والبيولوجيا، والاتصالات، والفضاء...ومن هنا تأخذ الدراسات المستقبلية دورا هاما فى محاولة وضع سيناريوهات جادة تجاه المستقبل، ومن العلماء الذين لهم دراسات فى هذه المجال ميتشيو كاكو "Michio Kaku" وهو عالم يابانى تخصص فى الفيزياء النظرية حيث تخرج فى جامعه هارفارد عام 1968 بتقدير أمتياز مع مرتبه الشرف علاوه على كونه الطالب الأول فى مادة الفيزياء، وفى عام 1972 التحق كاكو بجامعة كاليفورنيا حيث عمل بمعمل " بيرلى للاشعاع الـذرى " Berely Radiation Laboratory وفى عام 1973 حصل على درجة الزمالة من جامعة برينستون "Princeton" حيث قام بالتدريس بذات الجامعه لمدة 25 عاماً، قام دكتور كاكو بالإشراف على العديد من رسائل الدكتوراه الـتى تعد مرجعا هامـا فى معامل الفيزياء فى جميع أنحاء العالم، يأخذ كاكو على عاتقة استكمال مسيرة اينشتاين فى ايجاد نظرية فيزيائية لكل شيء فى الكون Theory for Everything، دكتور كاكو من أعلام الفيزياء النظرية وله العديد من المؤلفات في هذا المجال مثل الفضـاء الواسع "Hyper Space" رؤى مستقبـلية"Visions" أكوان متوازيــة Parallel "Worlds" كما حضر بروفيسور كاكو فعاليات مؤتمر" أينشتاين" الذي أقامته مكتبة الإسكندرية ـ تلك المنارة الحضارية ـ في الفترة من ٤-٦ يونيو 2005 احتفالاً بمرور مائة عامٍ على "١٩٠٥عام أينشتاين للمعجزات"، إن هذا المؤتمر الذي جمع العلماء من مختلف أنحاء العالم كان يهدف إلى نشر الوعي بأهمية الفيزياء بصفة خاصة والعلوم بشكل

عام في حياتنا وأثرها الكبير في النهضة التكنولوجية التي نعيشها، وكذلك تشجيع طلبة المدارس والجامعات على هذا النوع من الدراسة وتعريفهم بالدور الذي تلعبه الفيزياء في إثراء باقي العلوم والمجالات الأخرى كالهندسة والطب والصناعة. ومختلف مجالات الحياة.

ويعتبر كتاب "رؤى مستقبلية""Visions"[1] لكاكو من أهم الكتب التى تناقش ما سيكون عليه التطور العلمى والتكنولوجى فى القرن الواحد والعشرون وما بعده، ولقد إعتمد كاكو فى هذا الكتاب على ما اتيح له من مقابلات عديدة مع أكثر من مائة وخمسين عالما في تخصصات مختلفة. ويطرح الكتاب عديد من الرؤى المستقبلية فى كثير من المجالات منها كيف سيشكل الإنترنت حياتنا؟

إن شبكة الإنترنت جاءت لتبقى وبالطبع إن النمو الهائل فى الإنترنت سوف يتحول إلى نمو ثابت وعادى سوف يصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية وتكون ضرورية للقيام بأعمال التجارة والفنون والعلم والتسلية يمكن القول أن شبكة الإنترنت فى السنوات القادمة سوف تصبح كالماء والهواء ولن يستطيع أحد أن يستغنى عنها حيث سترفع من قدرتنا على العمل فى المنزل والمكتب كما أنها سوف تجمع بين الهواة من جميع أنحاء العالم إلى التسوق الإلكترونى (السوق الإلكترونية) كما أنه سوف يتواجد مفهوم الحجز عن طريق الإنترنت (تذاكر القطار وتذاكر الطيران والكتب) بل يمكنك إرسال تصميم الملابس التى تريد شرائها إلى الشركة المصممة للملابس، وسوف يقدم لك التصميم ثلاثى الأبعاد على شاشة

[1] ميتشيو كاكو: رؤى مستقبلية، ترجمة د. سعد الدين خرفان، عالم المعرفة 270، يونيو 2001.

الكومبيوتر ويمكنك أن تشاهده وتطلب تعديلات طبقا لرؤيتك ثم بعد ذلك سوف يتم إرسال المنتج لك فوراً، أيضا سوف تتحول التجارة الحقيقية إلى تجارة عبر شبكة الإنترنت حيث لا يوجد مكان بعيد أو معزول عن بقية العالم، وليس هناك مشكلة إلى أماكن التخزين، ولكن كل المعاملات فى هذا الفضاء الإفتراضى والذى سوف يحمل إختناقات النطاق الترددى لفيضان المعلومات المتدفقة عبر شبكة الإنترنت، وهذا سوف يدفعنا إلى أن يصبح الليزر هو الوسيط الرئيسى للإنترنت لأنه يستطيع نقل المعلومات بسرعة فائقة وبكمية غزيرة، لقد صنعت كابلات ليفية يمكنها نقل كمية هائلة من المعلومات تقدر ب 100 مليون بت فى الثانية، وهى تعادل إرسال الموسوعة البريطانية عبر ليف زجاجى خلال أجزاء من الثانية وهذا هو الحد الأقصى الذى يمكن الحصول عليه بالتكنولوجيا الحالية، إن ذلك سيجعل طاقة الليزر بلا حدود، ولن يحد من قدرتها سوى ضعف التجهيزات التكنولوجية.

كما أن الجديد فى عالم الذكاء الصناعى أو ما قد يطلق عليه باسم عالم الروبوتات "Robots" هو ان روبوتات الجيل القادم سوف تتعلم بذاتها وتكتسب الخبرة بذاتها أى أننا أمام شبيه الإنسان الصناعى لذلك فإنه عند صناعة الروبوت يحتاج إلى عملية لإكتشاف المجتمع المحيط به أى أن فإن كميه المعلومات (الحياتية) عند ولادة الروبوت هى (0). إن الروبوتات سوف تدخل كل مجالتنا الحياتية فى الطب، البناء والأعمال الهندسية، صناعة الكمبيوتر، وكل الصناعات الثقيلة، كما أن " الفني (فني صيانة الأجهزة الكهربية) " سوف يمتلك ريبوت يساعده على القيام بأعماله إلى جانب سائقى (التاكسى) سوف يكون ريبوت يتم إدماجه

بخريطة مفصلة للمدينة يتعامل معها لكى يوصل العميل إلى المكان الذى يريده.

يحاول العلماء الإرتقاء بتكنولوجيا صناعة الروبوتات إلى مرحلة "الفهم الإنسانى" فهم يحاولون أن يضيفوا إلى الروبوت بعض الخصائص الإنسانية البحته مثل: "الحب، الكره، الغيرة، المرح" ولكن أحد العقبات التى تواجه العلماء الآن هى أن الروبوت يرى، ولكنه لا يفهم ما يراه بمعنى أنه إذا تواجد فى غرفة معيشة فإن آلة التصوير تقسم صورة غرفة المعيشة إلى آلاف النقط الصغيرة والتى يجب مقارنتها نقطة فنقطة مع الصورة المخزنة فى ذاكرتها. ويستغرق هذا الأمر من ساعة إلى عدة أيام. وذلك فإن التعرف على الوجوه مشكلة صعبة بشكل خاص، فمن الصعب على أجهزة الكمبيوتر التعرف على وجه إنسان إذا أدير هذا الوجه لعدة درجات فقط. كما أنه هناك بعض الأنواع من الروبوتات التى سوف تتعلم الكلام وطريقة اللفظ بدائرة عصبية بسيطة صناعية بشكل مدهش، بعيداً عن البرامج والقواميس أو قواعد التصريفات، إن عالم الروبوتات والذكاء الصناعى يدخل آفاق بعيدة تقترب من عالم الإنسان.

عصر اليوم ينطلق فى فضاء رحب ومن ثم التواجد الحضارى للأمم يرتكز على العلم والمعرفة في بنية المجتمع الذي يتوجه للمستقبل.

صلاح طاهر
رحلة مع حرف الألف

منذ سنوات قليلة رأيت الفنان التشكيلى صلاح طاهر (1912-2007) يتجول فى ردهة المجلس الأعلى للثقافة كان يتابع ندوة، رأيته منفردا، وهو قد تجاوز التسعين عاما، قلت فى نفسي ما شاء الله، صلاح طاهر يتجول بمفرده، فى تلك اللحظة، وبلغة السينما وهي) المزج Dissolve) أي تأخذ صورة فى الظهور بشكل تدريجي على صورة آخري، حتى يتم اختفاء الصورة الأولى وتظهر الثانية فقط! يا للعجب! ما هذا الذي أرى أمامي؟ إنه حرف الألف يظهر فوق صورة صلاح طاهر، وفى ثوان قليلة تلاشت صورته، وبقي حرف الألف أمامى قويا مستقيما شامخا، ثم فجأة وجدته يمشى إلى جوارى، ولكنى كنت أود الحديث إلى الفنان إنها فرصة عظيمة، ماذا على أن أفعل؟! لمعت لدى فكرة، لماذا لا أسأل هذا الحرف، لقد إستشعرت أن هناك علاقة روحية بينه وبين الفنان صلاح طاهر، لا أدرى، هذا التيار الداخلي يوجهنى أن أقترب من الألف وأبدأ الحديث معه. قررت وذهبت بأدب وقلت له: من فضلك، هل تعرف الفنان صلاح طاهر؟ نظر إلى حرف الألف مبتسما، وقال لى بصوت هادىء: نعم أعرفه. اطمأنت نفسي وشجعتني لمزيد من الأسئلة، قلت لماذا كانت البداية فى لوحاته واقعية؟

قال حرف الألف: لا يا صديقى العزيز، لم يكن واقعيا مثل بارهاسيوس، هل تعرفة؟ قلت: لا. وفجأة أمسك بى الألف بقوة، ووجدتنى فى لمح

البصر فى ساحة كبيرة، إنها أثينا القديمة، وحرف الألف إلى جوارى يقول لى أنظر إنها مسابقة فنية بين اثنين من رسامي أثينا الشهيرين لنرى أيهما يصور الطبيعة أكثر من الأخر.. " " زوكسيس " أم " بارهاسيوس " إنه يوم التحكيم، نظرت باهتمام فوجدت فلاسفة اليونان يتأملوا لوحة " زوكسيس " التي رسم فيها عناقيد العنب، وكأنها حقيقية. أثناء تأملها هبطت الطيور من السماء لتلتقط حبات العنب. وجـاء دور " بارهاسيوس " فطلب من المحكمين أن يرفعوا الستار عن لوحته ليروها.. ومدوا أيديهم ليرفعوا الستار.. فإذا الستارة نفسها هي الرسم على اللوحة. قلت لحرف الألف: لقد بلغت اللوحة من دقتها أن خدعت المحكمين، أي أن اللوحة الأولى قد خدعت الطيور، أما اللوحة الثانية فقد خدعت أبصار الفلاسفة ورجال الفكر. ولذلك استحقت لوحة الستارة أن تفوز بالجائزة"[1]. قال حرف الألف: إن صلاح طاهر لا هذا ولا ذاك، إنه لا يحاكى الطبيعة، وإنما كانت المناظر الطبيعية وأعماله فى فن البورتريه لرواد الجيل أمثال رفاعة الطهطاوى، أحمد شوقى، طه حسين وغيرهم، تعكس الروح الداخلية لهذه الأعمال من خلال المذهب " التأثيري " الذي يحتفل بالأضواء ويهتم بتكامل الألوان المتقابلة. إنه التجاوز للشكل الفوتغرافى والمظهر الخارجى إلى الأعماق النفسية للموضوع الذي يتناوله.

قلت لحرف الألف: شكرا لهذا التوضيح العملى ولكن الصديق الفنان بعد ذلك اتجه إلى التجريدية؟ أمسك الألف بيدى مرة آخرى فإذا بنا سويا فى متحف الفن الحديث بالقاهرة، أمام لوحة " الهابطون من السماء " وهى بالطبع للمبدع صلاح طاهر، ثم قال لى : " إن الفنان يتنفس عصره

[1] ألوان من الفنون، السلسلة الثقافية لطلائع مصر، وزارة الشباب، نوفمبر 2005، ص 14.

ويعتصره" فمن ثقافة الفنان والمحيط الذى يتفاعل معه ينطلق فنه فى اختياره للقوانين التى يبنى عليها عمله ، كما تتفاوت هذه القوانين بصورة كبيرة بين فنان وآخر، وأيضا بين الفنان نفسه، من مرحلة إلى مرحلة آخرى، لقد عايش صلاح طاهر ما حدث من تغير فى المجتمع المصرى بعد ثورة 1952 وظهور طبقات جديدة، أيضا كانت التجريدية كفن منتشرة فى العالم الغربى، كما كان صلاح مولعا بالموسيقى الكاسيكية وفهمها، والموسيقى فن التجريد، كان القلق ينتابه للبحث عن أسلوب يحقق فيه شخصيتة، ويصنع إضافة للفن المعاصر، والحكمة تقول " إذا إتسعت الرؤية ضاقت العبارة " فهكذا كانت مرحلة التجريدية للطبيعة والمكان والأشخاص متعة يعبر فيها عن ذاته ورؤاه دون الإلتزام بالشكل الواقعى، فكانت عالما وجد فيه نفسه وحلق معه.

قلت: والدليل على ذلك لوحاته اللاتشخيصية التى نراها الآن؟

قال حرف الألف: نعم، إنها لوحات تصور تشكيلات إنسانية وهم يبدون فى شكل تكتلات قوية مهما كان عددهم، إنهم يتداخلون ويتماسكون كما يحدث فى الحياة مثل: "أمام المعبد " " تجمع " " ثلاثة نسوة" " حوار " " حرب " " أمام الأفق " ولوحة " هو ". قلت: يبدو أنك تعرف هذا الفنان بشكل قوى من فضلك كيف تكونت تلك الشخصية الأصيلة؟

قال حرف الألف: تجربة صلاح طاهر العريضة والثرية فى الثقافات المختلفة من قراءة لمناهل الفكر والفلسفة، الحب للموسيقى الكلاسيكية، الإبحار والمعايشة فى حضارات مصر الفرعونية والقبطية والإسلامية وكذلك الفلكلورالشعبى، السفر للخارج والإنفتاح على الآخر، والتأمل فى منظومة الكون ومحاولة التناغم معه، كلها صنعت اتساعا فى الرؤية، عناصر صنعت نموذجا فريدا على المستويين الإنسانى والفنى، لأنه أبدع

لغة لونية فنية تتحاور مع الواقع، لقد امتزجت القيم المادية والروحية والجمالية فى بوتقة واحدة، وشكلت فن صلاح طاهر الذى ينفذ إلى الأعماق الإنسانية، ويتخطى بذلك حدود المظاهر الخارجية للمكان وفى نفس الوقت يتجاوز الزمان، إنها رحابة زاوية الرؤية تجاه الموضوع الذى يعبر عنه، ويبدعه الفنان من خلال منظوره البصرى، ومع ذلك فهو يحمل ملامح خصوصيته وقيمه المصرية الأصيلة كعنصر جوهرى فى فنه، ومن هنا تكمن روعته فى روحه العالمية.

قلت مندهشا لدقة الإجابة: هل تسمح لى بسؤال شخصي؟ قال: تفضل. قلت من أنت؟ قال: أنا " حرف الألف"[1] إحدى لوحات الفنان صلاح طاهر، وأنا أول حروف العربية، والهمزة الملحقة بى توضح كيفية النطق، وأنا رأيتك في إحدى معارض الفنان طاهر، وأنا أتذكرك جيدا، لا تعتقد أيها الكاتب أنك تأتى أنت وأصدقائك لتشاهدونا فى لوحات على الجدران، نحن أيضا وفى المقابل نتفرج عليكم فى الأثير، نحن أيضا نستمتع بمشاهدتكم. إختفى حرف الألف من أمامى، ولم تختف لوحات الفنان من ذاكرتى.

رحم الله صلاح طاهر كألف مستقيم قوى، أدى دوره فى صفحة الحياة، ورسم فيها لوحة بألوان جميلة فيها كل العطاء والبهجة والتفائل والحب للكون.

[1] صبحي الشارونى: صلاح طاهر، سلسلة وصف مصر المعاصرة من خلال الفنون التشكيلية، الهيئة العامة للإستعلامات، 1985.

الأم

تحية مفعمة بعطور الريحان والياسمين إلى أمي وهي في عالمها الروحي، تحية أرسلها عبر الآثير الذي يجمع كل الكائنات سويا فى هذا الكون السرمدى، تعجز الكلمات على أن تعبر عن مكنون نفسي تجاه أمى لأنها أعطت بكل حنان وعطف دون انتظار شيء، عطاء للعطاء، عطاء لا نهائى يحمل كل الكرم والجود والحب.

أتذكر قول أمير الشعراء أحمد شوقى:

الأم مدرسة إن أعدتها أعدت شعبا طيب الأعراق

نعم الأم هى المعلم الأول، والمدرسة الأساسية للأبناء فى مراحلهم الأولى من التربية، فهم يستقون منها العطف والحنان، وفى نفس الوقت الخبرة المعرفية والتعلم، وكلما كانت الأم واعية متعلمة مدركة لدورها فى التنشئة وفى التربية كلما كان الجيل صالحا قادرا على مواجهة تحديات المستقبل ، وضرورة فى عصرنا هذا أن تكون الأم مواكبة للتطورات العصرية، إن المشاركة المجتمعية هامة لكى تتكاتف الأم فى منظومة المجتمع، إن أيضا تعلمها ليس فقط القراءة والكتابة بل نتجاوز ذلك إلى معرفة اللغات، وتقنية الكومبيوتر والإنترنت يصبح واجب يحتمة التقدم التكنولوجى الذى يجب أن نتفاعل معه لأن سبل الحياة تسير نحو التطور، ويجب على الأم أن تتفاعل مع مستجدات العصر لكى تصنع تفاهما مع أبنائها، بعض الأمهات تقول: أنها تؤدى دورها داخل المنزل على أكمل وجه ولا يعنيها الكومبيوتر، ونقول لهؤلاء، هذه وجهة نظر غير

صحيحه، لأن المعرفة اليوم أصبحت واجبة وضرورة لكى نعرف ما يدور حولنا، وأيضا سبل التعايش مع العصر يتطلب معرفة هذه التقنيات التكنولوجية لأننا نرى اليوم التليفزيون تداخل مع الكومبيوتر، وشراء المستلزمات المنزلية من خلال الكومبيوتر، وحجز تذاكر الطيران والسينما من خلال الكومبيوتر، وعمل كشف حساب منزلى والجامعة المفتوحة من خلال الكومبيوتر، والتواصل عبر العالم الإفتراضى من خلال الكومبيوتر، إنه حق مثل حق ممارسة المشاركة السياسية داخل جدران المجتمع، لكى تصنع هذه الأم الواعية شعبا عريقا.

الأم هى الأرض التى تثمر وتزهر، وبعض الأبناء لا يقدرون دور الأم فى مشوار الحياة القصيرة التى نحياها، تمر بنا الأيام والبعض لا يعبأ ولا يهتم بوجود الأم، تأخذنا الحياة فى مشوارها بكل طرقه ودروبه، وننشغل بأعمالنا وشئوننا والبعض لا يدرك أن هناك أما يجب أن نقدم لها كل الرعاية، حق الرعاية، وأن نسأل عنها، وأن نكسب رضاها، لأن الوقت يمر، وهو يمر مسرعا، وفجأة يمكنها أن ترحل من الوجود، ويصبح الأمر صعبا ومستحيلا لتعويض ما فات. حكى لى صديق بأن هناك أم تسكن فى " دار للمسنين " ولها ثلاثة أبناء فى وظائف متميزة لم تر أحد منهم منذ خمس سنوات، إنهم يدفعون لها أجرة الدار كل شهر فى الحسابات، وينصرفون مسرعين دون المرور عليها، ودون السؤال عنها، ودون رؤيتها! وهذه الأم فى شوق شديد لرؤية الأبناء، وهذه الأم أيضا كم سألت مدير الدار أن يطلب من أبنائها عند الحضور بضرورة مشاهدتها، ولكن دون جدوى، ينصرفوا فى كل مرة مسرعين نحو إنشغالات المدينة المزدحمة، ما هذا؟! لم يتذكر هؤلاء الأبناء كم فعلت هذه الأم فى حملهم،

وتربيتهم، وتدليلهم، والسهر على راحتهم حتى أصبحوا فى وظائف مرموقه وقادرين على خوض الحياة بقوة، لم يتذكر هؤلاء الأبناء كم عانت هذه الأم حتى يكملوا تعليمهم بعد موت أبيهم، ما هذا؟!

أتذكر الآن قصة من التراث الهندى، أرجو أن يقرأها هؤلاء الذين لا يدركون قيمة الأم، وأن الحياة دائرة دوارة. يحكى أن فلاحه كانت تحب ابنها، وتصحبه دائما للعمل فى الحقل معها، وكبر الابن وتزوج وولدت له زوجته طفلا جميلا ظريفا...وكبر الطفل على حب جدته من كل قلبه...وكانت الجده قد أصبحت عجوزا غير قادره على العمل فى الحقل كما كانت تفعل فى شبابها، لذلك كانت تبقى فى البيت مع الطفل تلعب معه، وتحكى له حكايات طريفة، بينما تقوم أم الطفل بأعمال المنزل...وكانت الأسرة سعيدة إلى أن خرج الشاب والد الطفل إلى السوق، يبغى بيع بقرته.. ولكنه لم يجد مشتريا يدفع الثمن الذي يريده، فعاد إلى البيت حزينا غاضبا، فوجد زوجته لم تعد طعام الغذاء لمرضها، فأساء إليها بالقول، وغضبت والدته عليه، وعاتبته قائلة: هل تسئ إليها بدلا من أن تأتى لها بالطبيب أو تصحبها عليه؟ فإذا بالشاب يصرخ في وجه أمه بكلمات غاضبة سخيفة، وكان مما قاله لها: مالك أنت أيتها العجوز الكسول؟ أنت تجلسى بلا عمل طيلة النهار، تأكلى وتشربى وتنامى دون أن تبذلي مجهودا...؟ أنا لا أريدك أن تبقى في بيتى، فقالت الجدة: لقد تعبت في حياتى كثيرا.. جدا ... وبذلت كل ما فى وسعى لكي ... ثم ...؟ قال الابن: أنا لا أريدك أن تبقى في بيتي، فقالت له الأم: لقد تعبت في شبابى وصار من حقى أن أستريح فإذا كنت لا تريد منى أن أبقى في بيتك، فأننى سوف أغادره في التو واللحظة.. وقامت الأم تسير

تجاه الباب.. وجرى الطفل خلف جدته صارخا باكيا: لا لا لا تذهبى يا جدتى ... أنا أحبك.. ابق معنا ... وارتفع صوت الطفل ينوح في ألم شديد ... بل أن الدنيا نفسها بكت، نزلت الأمطار من عيون السماء ... وبدأ الطفل يرجو أباه أن يبقى جدته، ورجته زوجته كذلك، ولكنه أصم أذنيه، ورفض كل رجاء ... وخرجت الجده إلى الخارج إلى الشارع، ومياه الأمطار غزيرة والبرد شديد .. وتألمت أم الطفل لخروج العجوز في مثل هذا الجو الفظيع، فتوسلت إلى زوجها أن يعطى الأم العجوز شالا تتدثر به، وتتقى به المطر.. فوافق وطلب من ابنه الصغير أن يدخل لإحضار الشال، فإذا بالطفل يعود من الداخل وليس معه سوى نصف الشال.. سأله أبوه: لماذا قطعت الشال إلى نصفين؟ قال الطفل: هذا النصف لجدتي لكي يحميها من المطر... أما النصف الأخر أبقيته لك يا أبى حتى تكبر! "

أتذكر أيضا حديث الرسول الكريم حينما جاءه رجل يسأله: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك. علينا أن نكون بررة بالوالدين لأن الزمن لا يعود مرة آخرى إنها فرصة ذهبية بل فرصة لا تعوض، لأن الأم شخصية نورانية فى طريق الحياة.